شـــعراؤنا المؤرخون

كيف نرتب دواوينهم ونقرؤها

للاستاذ محمود عزت عرفة

قد يستسيغ قارئ الأدب منا أن يطالع شعر ابن أبي ربيعة مثلا في غير ما ترتيب ولا تبويب — كما هو الشأن في ديوانه المطبوع — فلا يفرق بين أوائل شعره وأواخره ؛ ولا يتدرج في المطالعة من شعر صباه وشبابه ، إلى شعر رجولته واكتهاله ، ثم إلى شعره وهو يدب هوناً إلى الثمانين ...

قد نستسيغ ذلك لأن ابن أبي ربيعة وأمثاله من الشعراء العاطفيين لا يصدرون في أقوالهم إلا عن بواعث نفسية وموحيات خاصة ، لا ترتبط عند القارئ ، ولا عند الشاعر في أكثر الأحايين ، بزمان محدد أو مكان معلوم .

ولكن الشأن يختلف في ذلك كثيراً مع شعرائنا الاجتماعيين من أمثال المتنبي والنواسي والبحتري وأبي تمام والشريف ومهيار والسري وصردر ؛ أولئك الذين سجلوا في شعرهم صوراً كاملة من أحداث عصورهم ، وجروا في حلبة التاريخ أشواطاً تختلف طولا وقصراً باختلاف سني أعمارهم . فارتبط شعرهم بحوادث تاريخية مشهورة ، محدود زمانها ومكانها ؛ ونجلت من أجل ذلك أهمية الترتيب والتبويب في مطالعة إنتاجهم ، ترتيباً وتبويباً ليس منهما في شيء مراعاة أبجدية القوافي ، ولا الاكتفاء بملاحظة أغراض الشعر المختلفة ، كما هو الشأن في معظم الدواوين المطبوعة اليوم ، وفي أصولها المخطوطة من قديم .

ولنضرب هنا المثل بشاعر كالبحتري ؛ فهو قد ولد في أوائل عهد المأمون ، وتوفي — عام ٢٨٤ هـ — في خلافة المعتضد . وبذا يكون قد عاصر عشرة من خلفاء بني العباس اتصل بستة منهم اتصالا وثيقاً ، هم على ترتيب عهودهم : المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد ؛ وله في كل منهم مدائح أو أهاج[1] تكشف عن مدى اتصاله بالحياة السياسية على عهده وانغماسه في تيار الحوادث الجارف خلال هذه الحقبة الطويلة الهامة من حكم العباسيين . وإذا نحن نظرنا إلى هؤلاء الأعلام الستة كنجوم لوامع نيرات في أفق ديوانه تحدد لنا أهم اتجاهاته ، كان لنا أن نتخذ من سائر الأعلام المنبثة فيه نجوماً أو كواكب أقل التماعاً نملأ بها الفجوات الفسيحة فيما بين ذلك ؛ فنخرج من شعر البحتري بصورة تاريخية مشرقة المعالم واضحة التعابير ، لحمتها حقائق التاريخ وسداها الفن الرفيع والأدب المعجب ... ذلك أننا نجد إلى جانب ما قاله في أولئك الخلفاء قصائد ومقطعات أخرى تبلغ المئات عدداً من مدائح وأهاج ومعاتبات وعتاب ومداعبات ، ومن سائر ما يدور بين المتعاصرين — كلها تتعلق بشخصيات تاريخية هامة من الوزراء والقواد والولاة والسراة والأدباء والأعيان وغيرهم ؛ وأكثرها يسجل معالم واضحة دقيقة لأسر خطيرة الذكر على هذا العهد من أمثال آل طاهر وآل

(١) راجع مقالتينا : « شاعر ومنجم » و« النابغون في أوطانهم — حديث عن البحتري » في العددين ٥٤٥ و ٦١٠ من مجلة الرسالة ، بتاريخي ١٣-١٢-١٩٤٣ و ١٢-٣-١٩٤٥ م

من أساسه ونجثته من جذوره ، فنوحد بين سبل التعليم العام أولا ، فلا تكون هناك مدارس أولية وأخرى ابتدائية تؤدي هذه وتلك إلى غيرها بنظام الحلقات المتداخلة في التعليم الذي يدرج عليه نظامنا الواهن السقيم ، وأن تتوحد فرصة هذا التعليم العام المشترك لجميع المصريين ، فلا يستطيعه الواجدون دون الفاقدين ، ولا أبناء الحضر دون أبناء الريف ، ولا المسلمون دون النصارى كما هو الشأن في بعض معاهدنا التسمة بسمة القرون الوسطى إلى اليوم

أما التعليم العالي وما فيه من تخصص واستعداد مهني فيجب أن يكون في كليات جامعة واحدة ، لا في معاهد مستقلة برأسها ، والمتخرجون في هذه الكليات يجب أن يكونوا في نظر الدولة سواء ، فلا ينظر رجال البوليس في شيء من الحسد إلى رجال الجيش ، ولا يطلب المهندسون المساواة بالقضاة ، والمدرسون المساواة بأولئك وهؤلاء ، وتختفي هذه الشكايات التي تملأ أعمدة الصحف ، وتبرأ النفوس من الحقد والجشع ، ولا نسمع أن طبيباً أهان وكيل نيابة ، أو أن طلبة الأزهر تماسكوا مع طلبة دار العلوم

عبد الحميد يونس
عضو لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية

المدبر وآل حميد ، وآل مخلد وسهل ووهب وخاقان ونيبخت وبسطام ... وغير هؤلاء

ومثل ذلك يمكن أن يقال عن أبي تمام الذي مدح المأمون والمعتصم والواثق من الخلفاء — وتوفي قبل الأخير بعامين — ثم التمت في ثنايا ديوانه الحافل بالأعلام ، أسماء آل دواد ووهب وسهل ورجاء وحميد ومزيد الشيباني وطوق التغلبي ويوسف الطائي ... الخ بل يمكن أن نقول ذلك عن كل شاعر اجتماعي من أمثال من أشرنا إليهم ، فترتيب شعر هؤلاء وفق أبجدية القوافي أو أغراض الشعر كما هو متبع إلى اليوم ، تشويه لعرض إنتاجهم ليس بعده تشويه ، وإعراض عن ناحية هامة كان ينبغي أن تتجه إليها العناية منذ بعيد ، تلك هي الناحية الاجتماعية التاريخية من هذه النفائس الخالدة .

وإن عذر القدماء لواضح في لزوم هذه الطريقة الفجة في جمع الدواوين ، إذ كان الأمر في ذلك موكولا إلى جماعة الرواة منهم والحافظين ، والغاية منه حفظ هذه الكنوز من الضياع ، ثم مساعدة المتأدبين والأدباء على اقتناء مجموعات شعرية وافية تسهل مراجعتها واستخراج البيت منها أو الأبيات بأيسر المجهود ، لتذوق ما فيها من شاعرية ، أو لدراستها دراسة لغوية لا تخرج عن دائرة النحو والبلاغة والعروض وما إليها . أما هذه الناحية التاريخية التي نشير إليها فلم تكن مما يخطر للقوم على بال ؛ وإنما هي غرض يتجدد ويزداد شعورنا بالحاجة إليه كلما تطاول الزمن على هذه القصائد فاكتسبت صفة السجلات التاريخية الوثيقة .

وإن تحقيق هذا الغرض ليقتضينا أن نرتب كل ديوان ترتيباً تاريخياً نراعي فيه تسلسل الحوادث المختلفة التي يسجلها الشاعر ، وتاريخ حياة كل من الأشخاص الذين يتحدث عنهم[1] . وليس يطعن في صدق هذا التاريخ الأدبي أو ينتقص من قدره ما قد يتجه إلى الشعراء عامة من الريبة في صحة أحكامهم لأنهم كمؤرخين معاصرين للحوادث التي يوردونها ، يمتازون من الخبرة وسعة الاطلاع بما لا يتأتى لغيرهم ممن سجلوا هذه الحوادث بعد انطواء أزمانها . وأي وصف لخيانة الأفشين للمعتصم أصدق عبارة مما سجله أبو تمام في قصيدته : الحق أبلج والسيوف عوار ؟ .. بل أي تسجيل لحوادث فتح عمورية أبلغ أثراً في النفس مما نقرؤه في بائيته : السيف أصدق أنباء من الكتب ؟

والأمثلة على ذلك كثيرة نومىء إلى بعضها فيما يلي :

١ — رحلت عن الربع المحيل فعودي : لأبي العتاهية في عقد الرشيد العهد لأبنائه الثلاثة في ذي الحجة عام ١٨٦ هـ

٢ — شغلان من عذل ومن تفنيد : للبحتري في عقد التوكل البيعة لأبنائه المنتصر والمعتز والمؤيد في ذي الحجة عام ٢٣٥ هـ

٣ — قل للسحاب إذا حدته الشمأل : للبحتري في وفود الروم على المتوكل ، ومفاداته الأسرى (في شوال عام ٢٤١ هـ)

٤ — ذاد عن مقلتي لذيذ المنام : لابن الرومي في إيقاع صاحب الزنج بأهل البصرة أيام المعتمد (شوال ٢٥٧ هـ)

٥ — عواذل ذات الخال في حواسد : للمتنبي في حروب خرشنة على عهد سيف الدولة عام ٣٤٠ هـ .

٦ — فتوحك ردت بهجة الملك سرمدا : للسري الرفاء في الغرض السابق .

٧ — فتح أعز به الإسلام صاحبه : للسري الرفاء في هزيمة الدمستق وبناء قلعة الحدث عام ٣٤٣ هـ .

٨ — على قدر أهل العزم تأتي العزائم : للمتنبي في الغرض السابق

* * *

وينبغي بعد ألا يفوتنا النص على أن هؤلاء الشعراء كانوا من حزب الخلافة في أكثر أمرهم ، فلهجتهم هي الرسمية ، ووجهة نظرهم هي الوجهة العامة الغالبة . وكتب التاريخ التي ننحني أمام صدقها لا ينظر أكثرها إلى الحوادث السائرة إلا من هذه الزاوية . فهؤلاء الشعراء في تسجيلهم لحوادث التاريخ العامة لم يكونوا إلا لساناً ينطق برأي الهيئة الحاكمة ، ولا يخالف كثيرا — إن لم يمثل تماماً — رأي الهيئة المحكومة من عامة الشعوب الإسلامية. هذا ، ولم تكن الأطماع التي تعتلج في نفوسهم ، والتي يحتمل معها الشك في صدق أحكامهم ، بالأطماع الجريئة بعيدة النور التي قد تتشوه بها الحقائق ويختل معها ميزان الأحكام . فهم مع

(١) قليل جداً من دواوين الشعر العربي ما رتب على هذا الوضع ، ولعل ديوان المتنبي يعد صورة مبتسرة من ذلك وفي كتاب ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام للدكتور عبد الوهاب عزام أن المتنبي « رتب ديوانه بنفسه وقرأه الناس عليه ، وأملى شرحاً لبعض أبياته ، وناقشه فيه من أخذوا عنه » انظر ص ١٧ من ذكرى أبي الطيب .

انجذابهم فى تيـار السياسة لم يكونوا من رجالها بالمعنى المفهوم ، وإنما هم أهل فن وأدب : مطلبهم العيش الرغيد وأمنيتهم الحياة السهلة الوادعة ؛ يفتنهم جمال الحق ، ويعجبهم الانضواء تحت لوائه والقيام بنصرته . وإنهم لأقل الناس انحرافا ، وأقلهم تبعاً لذلك تشويها للحقائق بزيادة فيها أو نقصان .

وكبار المؤرخين أنفسهم يتجه إليهم من النقد شيء كثير ، ويؤخذ عليهم من المآخذ ما يكفى أقله لأن يودى بقدر مؤلفاتهم التى نعتمد عليها الاعتماد كله ، ونستنبط منها حقائق التاريخ — فيما نزعم — جلية ناصعة .

جاء فى « ضحى الإسلام » عند الحديث عن مؤرخى العصر العباسى الأول[1] :

« قد يكون فى عمل هؤلاء المؤرخين بعض مآخذ كتلوين التاريخ ببعض العقائد أحيانا ، وكبنائهم التاريخ حول الخلفاء لا حول الشعوب ، وإهمالهم كثيرا من وصف النواحى الاجتماعية وغلبة النزعة الدينية فيما يعرضون له من أحداث ، وضعف النقد وإيجازه وسذاجته ... الخ » .

ونقول إنه لن يكون نصيب الشعراء من أمثال هذه المآخذ أكثر من نصيب المؤرخين ، مع ما ينبغى الاعتراف به دائماً من وفرة حظ الأولين من الصراحة وصدق التعبير ، وقلة تعلق أكثرهم بالماديات تعلقاً يدفعهم إلى اعتساف سبيل التحيز أو التحيف .

على أنه ينبغى لنا أن ندرك الفرق بين مذاهب الشعراء ومذاهب المؤرخين ؛ فلا نجشم الشعراء طريقاً غير طريقهم ... وإنهم لأصحاب الإغراق والإسراف والمبالغة والتهويل ... تلك الهالات المونقة التى تزين جبين الشعر ، والتى لا يصعب على المتفرس أن يتعرف إلى وجه الحقيقة من ورائها . ثم هم بعد ذلك يتفردون بالإبداع فى تصوير نفوس الأفراد والجماعات والتعمق فى تحليل الشخصيات التاريخية التى يعاصرونها إلى الحد الذى لا يتأتى لكثير من المؤرخين . ورب أبيات قصيرة يصف بها الشاعر حالة من حالات خليفة أو أمير فى مجلس سمر أو ساحة قنص أو محفل مناظرة أو مقام مشاورة — تكشف لنا من خلجات هذه النفسية التاريخية ونوازعها ما يعلل الكثير من الأحداث الهامة التى يكتفى المؤرخون بسردها ، ثم هم يتخبطون فى مجاهل الغيب إن تطاولوا إلى ما فوق ذلك بتعليل بواعثها .

ولتحديد موقف الشعراء من المؤرخين ، وبيان مدى الاعتماد على الشعر كمصدر من مصادر التاريخ نورد ما ذكره الدكتور طه حسين بك فى كتابه « مع المتنبى » ، وهو يتحدث عن وصف الشاعر لحروب سيف الدولة ، قال[1] : « قد يقال إن المتنبى أغرق وأسرف ، وعظم من أمر هذه المواقع أكثر مما ينبغى ، وأضاف إليها من الخطر أكثر مما تستحق ، وأعرض عن تصوير الهزيمة ، ولم يعن إلا بتصوير الانتصار . ولكن يجب أن نتفق ، فلم يكن المتنبى مؤرخاً ولا محققاً ، وإنما كان شاعراً ، وشاعراً ليس غير . أستغفر الله ، بل كان شاعراً يشترك فى الجهاد ، يذوق لذته ويشقى بآلامه . فالذين يطالبون هذا الشاعر بالتاريخ وتصوير الحق كما وقع يسرفون عليه ، ويسرفون على أنفسهم ، ويسرفون على الشعر نفسه . وأين كانت تقع حرب طروادة التى وصفت الإلياذة طوراً من أطوارها من هذه الحروب التى شهدها المتنبى ووصفها تسعة أعوام كاملة . أفيعاب شعراء الإلياذة بأنهم لم يصفوا التاريخ كما كان ، أم يحمد من هؤلاء الشعراء أنهم صوروا نفوس الجماعات والأفراد التى اشتركت فى هذه الحرب أبدع تصوير وأروعه ؟ » .

ثم يعتذر صاحب كتاب مع المتنبى عن تهويل الشاعر فى وصف وقائع سيف الدولة فيقول : « كلا إنه لا يتجاوز الحق ، ولا يفسد التاريخ بالقياس إلى الذين لا يحسنون استنباط التاريخ من الشعر ، ولا يفرقون بين مذاهب الشعراء ومذاهب المؤرخين » اهـ .

* * *

وإذا كنا قد أطلنا الحديث عن الناحية التاريخية من الشعر ، فحسبنا أن نجتزىء بالإشارة العابرة إلى ناحية أخرى تتعلق بعلم الجغرافيا . وخير من الإطناب فى هذا المقام أن ننقل للقارىء فقرة موجزة من كتاب « امرىء القيس » للدكتور محمد صبرى حيث يقول[2] : « قد جرى امرؤ القيس فى معظم قصائده ، وتبعه فى ذلك جميع شعراء العرب من جاهليين وإسلاميين ، على سنة تحديد الأماكن وذكرها ، ولا نبالغ إذا قلنا إنه لولا هذه السنة

(١) ضحى الاسلام للأستاذ أحمد بك أمين جـ ٢ صـ ٢٠٩ .

(١) مع المتنبى صـ ٢٢٣ .

(٢) الشوامخ : امرؤ القيس صفحة ٣٧ .